محاضرة في شعر التفعيلة (الشعر الحر) عند العرب

تمهيد عام

يمثّل شعر التفعيلة أحد أخطر التحولات في تاريخ الشعر العربي الحديث، إذ لم يكن مجرد تغيير في البنية الإيقاعية، بل كان ثورة جمالية وفكرية على التصور التقليدي للقصيدة. فقد أعاد هذا النمط الشعري تعريف العلاقة بين:

الشكل والمضمون

الإيقاع والتجربة

الشاعر والواقع

وقد وُلد شعر التفعيلة في لحظة تاريخية مأزومة، تميزت بانكسار الحلم العربي، واحتدام الأسئلة الوجودية، وتراجع اليقينيات، فكان هذا الشعر استجابة فنية لوعي جديد يبحث عن لغة أكثر قدرة على التعبير.

أولًا: نشأة شعر التفعيلة وسياقه التاريخي والفكري

1. السياق التاريخي

ظهر شعر التفعيلة في أواخر الأربعينيات من القرن العشرين، خاصة في العراق، في ظل:

الاستعمار الأجنبي

خيبات الحركات القومية

آثار الحرب العالمية الثانية

الاحتكاك بالثقافة الغربية (إليوت، بودلير، لوركا).

لقد بدا للشاعر العربي أن القصيدة العمودية:

جامدة الإيقاع

متوقعة البناء

عاجزة عن نقل التوتر النفسي والتمزق الداخلي

2. البدايات الفعلية

يرتبط التأسيس العملي لشعر التفعيلة بسنة 1947م، حيث ظهرت:

قصيدة "الكوليرا" لنازك الملائكة

قصائد مبكرة لبدر شاكر السياب

وقد شكّلت هذه المرحلة لحظة انتقال من الشعر الموزون المقفّى إلى الشعر الموزون غير المقيّد بالبيت.

ثانيًا: إشكالية الريادة (نازك الملائكة والسياب).

1. نازك الملائكة: ريادة الوعي والتنظير

تميّزت نازك الملائكة بأنها:

أول من أعلن القطيعة الواعية مع البيت الشعري

أول من نظّر لشعر التفعيلة نظريًا

في قصيدتها "الكوليرا" جسّدت المأساة الإنسانية عبر إيقاع متقطع يوازي وقع الموت:

شاهد:

سكنَ الليلُ

أَصغِ إلى وَقْعِ صدى الأَنّاتْ

في عمقِ الظلمةِ

تحتَ الصمتِ

على الأمواتْ

✦التحليل:

الأسطر متفاوتة الطول

الإيقاع نابع من تكرار التفعيلة لا من انتظام البيت

الموسيقى تحاكي وقع أنفاس الموتى

2. بدر شاكر السياب: ريادة التجربة والنضج

يُعد السياب المؤسس الحقيقي لقصيدة التفعيلة من حيث:

الاستمرار

العمق الفني

توظيف الأسطورة والرمز

شاهد – أنشودة المطر:

عيناكِ غابتا نخيلٍ ساعةَ السحر

أو شُرفتانِ راحَ ينأى عنهما القمر

✦التحليل:

الجمع بين التفعيلة والصورة الشعرية المركبة

وحدة عضوية محكمة

تداخل الذاتي بالجمعي

.3خلاصة الريادة

نازك الملائكة: ريادة البداية والتنظير

بدر شاكر السياب: ريادة النضج والتأثير

ثالثًا: روّاد شعر التفعيلة وتياراته

في العراق

بدر شاكر السياب

نازك الملائكة

عبد الوهاب البياتي

شاذل طاقة

في مصر

صلاح عبد الصبور

أحمد عبد المعطي حجازي

في الشام وفلسطين

خليل حاوي

محمود درويش (في مرحلته الأولى)

فدوى طوقان

رابعًا: الخصائص الفنية لقصيدة التفعيلة (بتوسّع وتحليل)

أولًا: الخصائص الإيقاعية (الموسيقية)

الاعتماد على التفعيلة بدل البحر

القصيدة تقوم على تفعيلة واحدة (مثل: متفاعلن – فاعلاتن – مستفعلن)

يكرّر الشاعر التفعيلة حسب الانفعال لا حسب عدد ثابت

شاهد – السياب:

مطر...

مطر...

مطر...

✦الإيقاع هنا دلالي نفسي لا عددي.

تحرير السطر الشعري

لا وجود للبيت المغلق

السطر يتوقف حيث تنتهي الشحنة الشعورية

ثانيًا: الخصائص الشكلية والبنيوية

وحدة القصيدة العضوية

المعنى يتنامى تدريجيًا

لا استقلال للأسطر كما في البيت العمودي

التدوير وكسر التوقع

الجملة قد تبدأ في سطر وتنتهي في آخر

شاهد – عبد الصبور:

أمي

لا تخافي عليّ

فأنا أعرفُ

كيف أسيرُ وحيدًا

ثالثًا: الخصائص اللغوية والأسلوبية

اللغة الإيحائية

الابتعاد عن المباشرة

الاعتماد على الرمز والتلميح

الصورة المركبة

تداخل الزمان والمكان

استحضار الأسطورة

شاهد – البياتي:

أنا تموزُ
أعودُ من الموتِ
في كلِّ ربيع
خامسًا: موضوعات شعر التفعيلة (بتوسّع كبير)
1. الهمّ الوجودي والقلق الإنساني
يعكس شعر التفعيلة:
الشعور بالغربة
الخوف من الموت
فقدان المعنى
شاهد – خليل حاوي:
أنا مصلوبُ هذا العصر
أحملُ صليبي
وأسير
✦يعبّر عن الإنسان المأزوم في عالم عبثي.
2. الغربة والاغتراب
غربة مكانية
غربة نفسية
اغتراب عن الذات والمجتمع
شاهد – السياب:
الشاطئُ الجنوبيُّ
والريحُ تصرخُ بي:
غريبٌ... غريبْ
3. القضية السياسية والقومية
ارتبط شعر التفعيلة:
بمقاومة الاستعمار
برفض الهزيمة

بالحلم بالتحرر

شاهد – محمود درويش:

سجّل

أنا عربي

وأطفالي ثمانية

✦لغة بسيطة لكن مشحونة بالاحتجاج.

.4الرمز والأسطورة

استُخدمت الأسطورة:

تموز (الخصب والموت والبعث)

المسيح (الفداء)

جلجامش

شاهد – السياب:

وفي العراق

جوعْ

وينثرُ الغلالَ فيه

موسمُ الحصاد

.5الذات والحب والألم

الحب في شعر التفعيلة:

مأساوي

مرتبط بالفقد

مشوب بالقلق

شاهد – نازك الملائكة:

أحبك

لكنني أخافُ

أن أقولَ أحبك

خاتمة تقييمية شاملة

لقد شكّل شعر التفعيلة:

حلقة وصل بين العمود وقصيدة النثر

ثورة فنية واعية لا فوضى شكلية

تعبيرًا صادقًا عن الإنسان العربي الحديث

وإذا كان الجدل حول الريادة قد استنفد طاقة النقاد، فإن القيمة الحقيقية لشعر التفعيلة تكمن في قدرته على تجديد الشعر دون التفريط في هويته الإيقاعية.